حول جائحتي المجاعة والوباء في مغرب القرن التاسع عشر، من خلال وثائق دفينة

مصطفى الشابي

كلية الآداب، الرباط

ترد في كتابات الإخباريين المغاربة وفي الوثائق المخزنية الخاصة بتاريخ المغرب في القرن التاسع عشر، وكذلك في الأرشيف الأجنبي، إشارات ومعلومات عن الكوارث الطبيعية التي كانت تُدهم البلاد، بين الفينة والأخرى، مخلفة وراءها الدمارَ والخراب.

وسنحاول، في مُداخلتنا هذه، استنطاق عينة من الوثائق ذات الصلة بالموضوع، علنا نُسهم في إثراء النقاش حول واحد من جوانب تاريخنا الوطني، ظل يكتنفه الغموض، بل مسكوتاً عنه إلى عهد قريب[1].

وممّا كان يزيد في هول الكارثة وفداحة أضرارها، في بلد تقليدي كالمغرب، سواء تعلق الأمر بانحباس المطر وحلول الجفَاف، وتكالب الجراد، وانتشار المجاعة، أو بمختلف أنواع الأمراض المعدية والأوبئة كالطاعون، والكوليرا، والتيفوئيد، والزهري...، انعدام الوسائل والإمكانات العلمية والمادية لمواجهة هذه الآفات والتغلب عليها، والاكتفاء بالتسليم بالواقع، وسيادة الذهنية التي يغلب عليها طابع الاعتقاد في السحر والخُرافة، في مجتمع اتسم اقتصاده بالفاقة والحاجة والخصاصة، وأصيبت بناه الإجتماعية والثقافية، منذ أمد بعيد، بالجمود والركود، والركون إلى التقليد ونبْذ كُلِّ ما هو جديد.

---

[1] حول مسألة المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب، يرجع إلى :

- أستيتو (محمد)، الكوارث الطبيعية في مغرب القرن السادس عشر، د. د. ع، كلية. الآداب، فاس، 1988.
- ابن زيدان عبد الرحمن، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، المطبعة الوطنية، الرباط، 5 ج، 1929 - 1933.
- البزاز (محمد الأمين)، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر 1792 - 1912، منشورات كلية الآداب في الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1992.

فإذن، نحن أمام بلد تقليدي لم يأخذ بعد بأسباب الثورة الفلاحية، ولا الصناعية، ولا التقنية ولا التنظيمية.

فهذا مثلاً الفقيه محمد بن المعطي المدعو حَدُّو السرغيني المراكشي (ت. 1296/1878-1879)، يثبت كلاماً للشيخ محمد المهدي بن أحمد بن علي الفاسي الفهري (ت. 1109/1698)، مُتَبَنِّياً إياه دون أدنى تردد ولاشك، حيث نقرأ ما يلي[2] :

«...ذكر الشيخ سيدي المهدي الفاسي في ممتع الأسماع في مناقب الجزولي والتّبّاع ومن لهما من الأتباع، أن من خاف على الغرس من الجراد، فإنه يكتب شكاية للشيخ مولانا عبد الله بن حسين، دفين تمصلحت من عمل مراكش في بطاقة وتُعلق على شجرة منه عالية ويلتزم لضريحه بقدر من طعام، فإن الجراد لا يعدو عليه. وقد جُرِّب ذلك فوجد كذلك، فإن كَرَامَةَ الأولياء لا ينكرها إلاَّ مَحْجُوف...» [3].

وإذا كان هذا النوع من التفكير والسلوك هو السائد في مغرب ما قبل سنة 1912، سواء تعلق الأمر بالجراد أو بأية آفة أخرى، فإننا لا نعدم العثور على إرهاصات وبوادر فكر ينزع إلى الملاحظة والوصف

---

[2] الناصري، أحمد بن خالد السلاوي، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، مكتبة الطالب، الدار البيضاء، 1956، الجزءان 8 و9.

- Busson (J. P), Note sur l'épidémie de variole à Safi en 1878, Bulletin économique et social du Maroc, 1952, p. 563.
- Renaud (H.P.J), La peste de 1799 au Maroc, in Hesp., 1921, pp. 160-182.
- Renaud (H.P.J), La peste de 1818, in Hesp., 1923, pp. 13-35.
- Rosenberger (B), Triki (H), Famines et épidémies au Maroc aux XVIè et XVIIè siècles, Hesp-Tam., 1ère partie, Vol. V, 1974, pp. 109-175, 2ème partie, Vol. VI.

[3] حدو السرغيني، محمد بن المعطي بن أحمد، فهرست، مخ. خ. ع، ك 1287، ص. 205.

وانظر كذلك ما جاء في جواب القائد محمد بن أحمد الزلطني، أحد قواد قبيلة حاحة، على رسالة سلطانية تضمنت الأمر بإجراء بحث دقيق وتقصي الأخبار بهدف تحديد المكان الذي يظهر فيه الجراد جنوبي جبال "درن" أي الأطلس الكبير، والتعرف على الوسائل المستعملة قديماً للقضاء عليه من قبل السكان، قبل وصول أسرابه إلى بلادهم، حيث نقرأ ما يلي :

«.. أما عن ظهورها (أي الجراد)، فقد مرت ببلدنا غير ما مرة، وأكلت جميع ما خضر على وجه الأرض نسئل الله بوجود مولانا اللطف، إذ هو على ما يشاء قدير. ومجيء الجراد لبلادنا من السوس الأقصا لا غيره. والموضوع الذي يخرج منه فقد سمعنا أنه ساحل بتخوم الصحراء، وأصله من قشرة حوت في البحر يخرج على شاطئه مثل الرغوة ويتولد منها... ».

- خ. س، مح. م. ع. ع رقم1/404، وثيقة بتاريخ 5 رمضان 1315/ 28 1898.

لدى قلة من الإخباريين المغاربة. ولعل صاحب "أقوال المطاعين في الطعن والطواعين"، محمد العربي بن على المشرفي واحداً من هؤلاء المثقفين النابهين الذين كانوا لا ينساقون كل الانسياق مع التفكير الغَيبي والسحري. ونلمس هذا الجانب مما قدمه لنا من معلومات، عن طاعون سنة 1213/1798-1799، في مؤلفه المذكور، حيث قال :« وفي رأس هذا القرن سنة 1234 موت الطاعون وهو خروج شيء في مغابن الإنسان كإبطيه، يشبه الجَوْزة، يَسْوَدُّ ما حولها أو يَحْمَرُّ مثلاً كما سيأتي بيانه... »[4].

وبعد ذلك، يشير إلى هذه الآفات، كمسغبة سنة 1234/1818-1819، وما تخللها من جفاف وتكالب الجراد، ووباء الكوليرا الذي دهم البلاد سنتي 1267/1850-1851، و1271/1854-1855، قادماً لها من الجزائر، مستعرضاً التسميات التي كان الأهالي يعطونها لهذا الوباء في «الواسطة» والمغرب كبوا كويبيس، والزراق، وبو أزريويطة، وبو أكَليب، ومرض النفطة، والريح الأحمر...

وجاء في رسالة القائد موسى بن محمد الغربي الدكالي إلى السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام، وهي بتاريخ 15 شعبان 1266، الموافق 26 يونيو 1851، حول ما تعرض له الباشا قادوس، أحد قواد كَيش عبيد البخاري وقتئذ، وهو في طريق العودة من مدينة مراكش إلى مكناس، عبر أراضي قبيلة دكالة، إذ ورد عليه «من مراكش قبل تاريخه بنحو ثمانية أيام ليلاً مسلوب الثياب، راجلاً، فَذَكَر أنه تعرض له ناس [هكذا] بأثناء الطريق فسلبوه حوائجه وفرسه، وأخبر أنه لم يشعر بهم...».

[4] المشرفي، محمد العربي بن علي، أقوال المطاعين في الطعن والطواعن، مخ. ح. س رقم 2054، ورقة 9 وما بعدها. وانظر كذلك ما تضمنته وثيقة بتاريخ 16 ربيع الثاني 1269، الموافق 27 يناير 1853 من معلومات حول انتشار داء الجدري في ربوع منطقة تافيلالت وسقوط أول الضحايا في مطلع شهر يناير المذكور، وفي مقدمتهم مجموعة من الإماء والوصفان من حاشية بعض الشرفاء من قرابة السلطان.

وهكذا، نقرأ في هذه الوثيقة ما يلي :

«.. وقد ذهب بباس سيدنا وصيف من وصفان سيدنا تقبل الله ءامين، كما ذهب بباس سادتنا أمة سيدي مولاي بلغيت، أم بلخير هي وولدها بلخير مريضان بالجدري، وحتى أمته الأخرى مريضة بالجدري أيضاً، نطلب الله سبحانه أن يُعافي... ».

-و. خ. ز، مج 24، وثيقة رقم 262.

ويضيف القائد قائلاً، وكأنه يلتمس شيئاً من العذر لمن تعرض إلى سبيل الباشا قادوس الذي لم يصب بأدنى سوء أو أذى :

«...ولا يخفى على سيادتك أن أهل الحوز وقع بهم ما وقع من أجل هذه المجاعة والعياذ بالله، فكثر ترددهم ومرورهم، وماج بعضهم، وقد أحوجتهم الضرورة إلى سلب من وجدوه منفرداً، ورُبَّما أفضى بهم ذلك إلى قتله...»[5].

وفي الفترة نفسها تقريباً، وبعد أن كانت أسراب من الجراد قد اجتاحت مناطق عديدة من البلاد في فصل ربيع سنة 1847 م، ها هو مرض معدي، ولعلّ الأمر يتعلق بالتيفوئيد، يتسلل إلى صفوف التجريدة العسكرية التي كانت مخيمة في بلاد الحياينة، إذ جاء في الرسالة التي وجهها قائدها الطاهر الرغاي البُخاري إلى الخليفة السلطاني سيدي محمد بن عبد الرحمن ما يلي :

«...ولا زال العسكر يزيد في المرض يشمون من بعضهم بعضاً، الله يلطف بجاه نبيه الكريم ويُعافي. وتُوفِّي منهم عسكري، وفر منهم عسكري، وفروا منهم خمسة، زوج جبالة ذهبوا (هكذا) بالقرب ياتوا (هكذا) بالمآء لأصحابهم ولم يرجعوا حين كُنا نازلين بسيدي علال الحاج بقربه، وواحد خرج عقله، وفروا اثنان كانوا من جملة العساسة بالكَعايد، وبقي سوى سلاحهم في الموضع الذي كانوا به بالموضع الذي نحن نازلين (هكذا) به بواد ورغا...»[6].

وبعد استراحة دامت بضع سنوات فقط، عادت للظهور، مرة أخرى، هذه الجوائح والكوارث، في أواسط العقد السادس من القرن التاسع عشر، حيث دهم البلاد الجفاف والجراد، وانتشر القحط والجوع، وغطى الجراد الآفاق، فانضاف إلى هذه الآفات، في آخر المطاف، الوباء. وبديهي أن مثل هذه الظروف العصيبة التي كانت تمر منها البلاد، بين

---

[5] م. و. م. ر، مح مراكش.

[6] م. و. م. ر، مح رقم 1، سجل 17856، وثيقة بتاريخ 24 شعبان 1263/ 17 غشت 1847. وعن ظهور الجراد بالبلاد في نفس الفترة، انظر :

- م. و. م. ر، رسالة القائد محمد بن الحاج الفروكّي إلى الوزير محمد بن إدريس بتاريخ 10 جمدى الأولى 1263/ 26 أبريل 1847.

- م. و. م. ر، مح مراكش، رسالة القائد المحجوب بن علي أحَمُّ المجاطي إلى الوزير محمد بن إرديس، بتاريخ 25 جمدى الأولى 1263/ 11 مايو 1847.

- الناصري، م. س، ج 9، ص. 61، وص. 62، وص. 69.

الفينة والأخرى، كانت لا تخلو من تمردات ضد المخزن وممثليه في القبائل، واقتتالات ونزاعات بين الأفراد والجماعات وبخاصة البوادي التي كان يحتدم فيها الصراع والتنافس بين السكان حول الماء وغيره من سبل وسائل العيش في الوسط القروي. وهذا ما تسمح بتلمس جانب منه ما جاء في رسالة أحد المكلفين بشؤون حراثة وتربية أنعام الحاجب موسى بن أحمد، في منطقة الحوز، حيث نقرأ ما يلي :

«...وهذا الضرر بالمدينة المراكشية خفيف في هذه الساعة ولا باس فيه... وأما ابن فائدة قطع الماء من مصرف ساقية أولاد سيدي رحّال على البحيرة حتى صارت تُسَاوي هذا 050، بعدما كانت تُساوي هذا 2000 (بالأوقية التي هي عشر المثقال)...

وأما العجول الثلاثة الذين (هكذا) كتبت عليهم يبلغون للدار من البقر، ذهب الوصيف، فألفا البقر قد ضاع بالموت كله ورجع بلا شيء...

واعلم سيدي أن البارود الواقع بين القائد علال الشرقاوي والقائد محمد بن صالح (قائدا قبيلة السراغنة) صحيح، وسببه الساقية حتى ماتت بينهم أرواح، وذلك من قلة عقولهما لأن الحوز هني وهما يقيدان نار الفتنة...»[7].

ومعلوم أن تحركات الجيوش السلطانية في أنحاء البلاد، كانت تعمل على نقل عدوى الوباء من جهة إلى أخرى، مساهمة بذلك في نشر الدمار والخراب في الأرواح والأنعام، إذ لا شيء وقتئذ بيد الناس لإيقاف زحفها، أو التخفيف والحَدِّ من أذيها. ولنا فيما قاسته من محن وشدائد حركة السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن بن هشام من مراكش إلى فاس سنة 1285/1868-1869، أحسن دليل نورده هنا للإستئناس به. على أنه، قبل تحرك الموكب السلطاني في اتجاه الشمال، دعت الضرورة إلى التَّخلِّي عن 526 شخصاً من أصل 9958 يُكَوِّنُون العَدَدَ الإجمالي لأفراد العسكر النظامي المشاركين في هذه الحركة، وتركهم بمدينة مراكش

[7] خ. س، و. خ. ز، مج رقم 11، وثيقة رقم 337، بتاريخ 2 ربيع الثاني، 1285 هـ/ 29 يوليو 1868 م.
- A. E. P, mém. et docts, T. 10, p. 297.
يقول القنصل الفرنسي أكوست بوميي (Auguste Beaumier)، في تقرير له بتاريخ مارس 1867 أن وباء الكوليرا قد أودى بحياة 800 شخصاً بمدينة الصويرة منذ ظهوره بهذه المدينة وحتى التاريخ المذكور.

بسبب مرضهم المفاجئ، وعجزهم عن السفر. والواقع أن هؤلاء الناس والذين كانوا يمثلون 5 % ونيف من أفراد تنظيمهم العسكري، قد أصيبوا بوبَاء الكوليرا الذي كان وقتئذ قد تسرب إلى المغرب عبر الحدود الشمالية الشرقية مع الجزائر[8]. يقول الناصري في هذا الصدد : «... وفي سنة خمس وثمانين ومائتين وألف، كان الوباء بالمغرب بالقيء والإسهال المفرطين على نحو ما وصفناه في السنين الماضية...»[9].

وأورد النقيب (Cap. Payerne)، أول رئيس للبعثة العسكرية الفرنسية بالمغرب، في تقرير له من مدينة وجدة بتاريخ فاتح أكتوبر 1878، خبر تفشي وباء الكوليرا بالبلاد، وما كان يخلفه من ضحايا بتجمعات الجيش ذاكراً بأنه قد انطلق من مدينة مكناس، في اتجاه فاس والمناطق المُجاورة لها. وبعد أن توقف أيّاماً عند الشراردة واشراكَة مخلفاً عدداً من الضحايا، زحف نحو تازة، وجبال دبدو، وقصبة عيون سيدي ملوك، حيث تُوَفّي من بسببه 22 جندياً من أفراد حاميتها العسكرية، وعددهم 250 عسكرياً. ومن هنا انحرف نحو الشمال الغربي قاصداً منطقة الريف.

وأنهى الضابط الفرنسي حديثه عن هذه الجائحة الخطيرة، مشيراً إلى ما لحق بمدينة مراكش وأهلها من خسائر وأضرار، الأمر الذي أدَّى إلى : «فرار عناصر الجيش النظامي في الخدمة، بسبب الراتب الزهيد الذي كان يُعطى لهم وقدره 14 موزونة في اليوم أي حَوَالَي 0,56 فرنك...» [10].

وكان يحدث هذا كله طبعاً، في وقت صار فيه المغرب، مع توالي الشهور والسنين أكثر ارتباطاً باقتصاد السوق، بعد أن أفلحت ضغوط الدول الاستعمارية العسكرية والاقتصادية، في مساعيها لفتح أسواقه وجبره على التعامل معها، مما جعل الاقتصاد المغربي العتيق والهش عُرضة للهزات والتقلبات في مجال الإنتاج، فائض أو خصاص في الإنتاج. وغلاء المواد والمنتوجات أو انخفاض أثمانها... ولنا فيما أصاب

[8] خ. س، ك 299، ص. 90، وثيقة بتاريخ 17 محرم 1285/ 10 مايو 1868.
- خ. س، ك 298، ص. 71، وثيقة بتاريخ 23 محرم 1285/ 16 مايو 1868.
- خ. س، ك 664، ص. 24 وثيقة بنفس التاريخ السابق.
- البزاز، محمد الأمين، مرجع سابق، ص. 215.
[9] الناصري، مرجع سابق، ص. 119 - 120.
[10] A. G. V, 3h2, Rapp. du Cap Payerne n° 137, e date du 1èr oct. 1878, p. 4.

المغرب من قحط ومجاعة وأوبئة في الفترة ما بين 1878 و1883 م خير دليل على ما قلناه، حيث تزامنت هذه الكارثة مع غزارة الإنتاج في أوربا وتقلبات الصرف، الأمر الذي زاد في استفحال الأزمة وتضييق سبل العيش على الناس[11].

ومما زاد في هول الكارثة، وزعزعة القلوب والنفوس، واستيلاء الخوف والجزع عليها، وبخاصة في فاس ومكناس ونواحيهما، الزلزال الذي ضرب منطقة قرية مولاي إدريس زرهون أواسط شهر يوليو من سنة 1878 والذي تحدث عنه باشا فاس وأخو الحاجب موسى بن أحمد، الفقيه عبد الله بن أحمد قائلاً : «.. فقد كتب لنا النائب عنّا في الزاوية الإدريسية معلماً بأن الزِّلالَ تكررت هنالك خمس مرات حتى بلغت القلوب الحناجر، وتهدت داران، وتفطرت دور من أجل عظم الخطب، فانظر إلى عظمة الحق وباهر سطوته، فما أعظم قدرته...» [12].

ونقرأ في رسالة وجهها من مدينة فاس التاجر ثُم الأمين العربي فرج إلى ابنه أحمد أن غلاء الأسعار قد استفحل في منطقة الغرب، حيث بلغ الرُبيِّع من الزرع 100 أوقية ومن الشعير 55 أوقية في فاس ومكناس، مع تسجيل ركود تام في المعاملات التجارية، وسقوط ما بين 20 و30 ميتاً يومياً بالوباء (كوليرا، أو جدري، أو تيفوئيد) في مدينة المولى إدريس الأزهر على الخصوص.

ويتنبّأ التاجر المذكور بمآل المحصول الزراعي للسنة والذي لن يكون، في رأيه، إلاّ رديئاً، ليس فحسب في مناطق الشمال، بل كذلك في الشاوية، ودكالة، وحوز مراكش. ويختم حديثه قائلاً : «وترينا عزينا أختك

[11] البزاز، م. س، ص. 237.

[12] و. خ. ز، مج 24، وثيقة 24 بتاريخ 18 رجب 1295/ 1878/7/16.

شامة في الولاد ووسعنا لها، ربنا يخلف لها. حتى أختك مكلتم ضاعت لها البنية الذي زادت عندها...»[13].

وبالفعل، لقد كانت سنة 1878 م من أعوام القحط والنقص الفادح في الأقوات، وفيها هلك رجال من كبار خدام المخزن، منهم الحاجب موسى بن أحمد، ومنهم قائد مشور المولى عبد الرحمن بن هشام وابنه سيدي محمد والوالي على فاس ثم طنجة، الباشا الجيلاني بن حم. وفيها استطاع رجل من أعيان الغرب من دوار التفاوتية أن يحقق مُضاربة كُبرى، إذ أسلف لأهل بلده زرعاً وأخذ في ضمانة رَدِّه وثائق مُمتلكاتهم. ولمَّا عجزوا عن تسديد ما عليهم، استولى على تلك الأراضي وسلبها أصحابها بين عشية وضحاها.

وفي العام نفسه، تمكن تاجر من القصر الكبير من تملك حوالي أربعمائة هكتار من الأراضي شمالي سوق أربعاء الغرب، أدَّى ثمنها بأكياس من الحبوب كان أسلفها لصغار فلاحي تلك الجهة[14].

ولم تكن هذه الآفات والجوائح هي الأخيرة التي أصابت البلاد في القرن التاسع عشر، بل ما كاد العقد الأخير من هذا القرن يبتدئ حتى عادت للظهور من جديد، بدءاً بالجفاف وتكالب الجراد، وإتلاف المحصول الزراعي، ومروراً بالأمطار الطوفانية والفيضانات التي كانت تُحدثها، أو بالعواصف الهوجاء التي ضربت مثلاً سنة 1895 سواحل المغرب الأطلسية، مخلفة وراءها الدمار والخراب، في الأرواح والممتلكات في كل من أسفي، وأزمور، والدار البيضاء، والرباط، وانتهاءً بالوافد الخطير وباء الكوليرا، والذي وجد مرتعاً مناسباً وأرضاً خصباً في حشود المحلة

---

[13] و. خ. ص. س، سلسلة III، حرف ـ أ ـ مح 3، وثيقة رقم 352 بتاريخ 18 شعبان 1295/ 17 غشت 1878.

ـ حول غلاء أسعار الخبز بمدينة مراكش، وانتشار وباء الكوليرا في نفس الفترة تقريباً، أنظر :

- A.G.V, 3 h2, Rapp. n° 4, en date du 1er Juin 1878.
- A.G.V, 3h2, Rapp. n° 10, en date du 1er Novembre 1878.
- A.G.V, 3h2, Rapp. n° 12, en date du 1er Janvier 1879.

في هذا التقرير، يقول النقيب إركمان (Le Capitaine Erkmann)، عن الحالة الاجتماعية السائدة بمدينة مراكش التي كان يكتب منها ويوجه تقاريره مباشرة إلى الحاكم العام للجزائر، ما يلي :

«لا زال البؤس منتشراً في المدينة، بل في ازدياد مستمر، الأمر الذي جعل عدد المتسولين هو الآخر في ارتفاع مستمر، إلى درجة أن الترجمان الأول للبعثة اضطر إلى الامتناع عن التجول في أزقة المدينة (مراكش طبعاً... ».

[14] Le Coz (J), Le Rharb, Fellahs et colons , Rabat, 1964, T. 1, p. 299 et suiv.

السلطانية التي كانت وقتئذ مخيمة بموقع كَيسر ببلاد الشاوية، في طريقها إلى بلاد الرحامنة، المنتفضين ضد المخزن غداة وفاة السلطان المولى الحسن سنة 1894. وقد صادف حلولها بهذا الموقع تهاطل أمطار غزيرة وهبوب رياح عاصفية، الأمر الذي تحولت معه أرضية المخيم إلى أحوال وردغات وتكسوها هنا وهناك برك من الماء، تختفي فيها الأقدام حتى الكعبتين، إذا لم تتعداهما[15].

وكان السلطان المولى عبد العزيز (1894 ـ 1908)، قد غادر مدينة فاس التي ظل مُقيماً بها، منذ وفاة والده السلطان المولى الحسن، في 25 من شهر شتنبر 1895، على رأس محلة كُبرى، في اتجاه الجنوب، عن طريق مكناس، وبلاد زمور الشلح، والعدوتين رباط الفتح وسلا، أي في وقت كان وباء الكوليرا قد انتشر في بعض جهات ومدن الشمال، كتطوان وطنجة مثلاً، قبل أن يزحف نحو مدن العرائش، والقصر، وفاس، والرباط على الخصوص، ويتمكن من التسلل إلى صفوف المحلة السلطانية، وذلك منذ شهر أكتوبر على الأقل، حيث يقول النقيب توماس (Cap. Thomas)، رئيس البعثة العسكرية الفرنسية بالمغرب بالنيابة وقتئذ ما يلي : «...إن الحالة الصحية السائدة حالياً في صفوف المحلة لا تبعث قط على الاطمئنان. فقد تُوفّي مؤخراً قائدان عسكريان وكلاهما برتبة قائد الرحى، الأمر الذي حمل بعض الأشخاص على التحدث عن ظهور الكوليرا في ركب السلطان، ولكن دون الاستناد إلى حُجج ثابتة...» [16].

وقد ازدادت حدة العدوى في الأسابيع الموالية، حيث ارتفع عدد الضحايا، ولم يسلم من هول هذه الجائحة لا حاكم ولا محكوم، حيث يذكر

[15] - A.G.V, 3 h11, Rapp. du cdt Schlumberger du mois de novembre 1895, p. 8 et suiv.

[16] - A.G.V, 3 h11, Rapp. du cdt Schlumberger du mois de mars 1896.
الرائد شلومبرجي هذا، هو رئيس البعثة العسكرية الفرنسية الرسمي. وعند انطلاق حملة السلطان من فاس، كان في عطلة خارج المغرب، ولم يستأنف عمله إلاّ يوم 7 نونبر 1895، حيث التحق بالركب السلطاني في مدينة الرباط التي، حسب ما جاء في تقرير حُرِّر في مطلع شهر نونبر 1895 م أشار إلى أنّ : « حمى خبيثة، شبيهة بوباء التيفوس، قد أودت بحياة العديد من عناصر الحامية العسكرية بمدينة الرباط...»
- A.G.V, 3 h9, Rapp. du cdt Schlumberger du mois de Novembre 1895, p. 4.
وانظر كذلك حول تسرب وباء الكوليرا إلى جيش السلطان، وما ترتب عن ذلك بالنسبة لرجاله وللمناطق التي مَرَّ منها :
ـ البزاز، محمد الأمين، م. س، ص. 339 وما بعدها.

تقرير في الموضوع أن عدد الإصابات بوباء الكوليرا في صفوف الجُند والحُراك قد بلغ 700 حالة، كما سُجلت إصابات في صفوف كبار قواد الجيش والكتاب، وغيرهم من علي القوم والذين في ركاب السلطان[17].

وهكذا، توفي محتسب مراكش، وهو شخصية بارزة في الجهاز المخزني وقتئذ، مولاي عبد الله البوكيلي، في 30 دجنبر 1895، بعد أن عبرت المحلة وادي أم الربيع، انطلاقاً من مشرع الشعير، وحطّت الرّحال على الضفة اليسرى لهذا النهر، في موقع كركور ببلاد الرحامنة[18].

وكان شخص يُدعى محمد بن أحمد زنيبر، قد راسل الوزير الصدر أحمد بن موسى، مُخبراً إياه بحلول وفد من أعيان ووجهاء قبيلة زمور الشلح بمدينة سلا، وتوجههم مباشرة إلى المسجد الأعظم بها، وذبحهم ذبيحة في عتبة بابه، معلنين بذلك انتهاء عصيانهم على المخزن وملتمسين عفو السلطان وصفحه عما صدر منهم من شنيع الأعمال وقبيحها. ويرى المخبر السلاوي أن تصرفهم هذا، إنما هو دليل قوي على ما حلّ بساحتهم من خوف ورعب، و« ممّا دهمهم من سطوة الأمير... مع ما سكن في قلوبهم من الرعب، ووجدوا في أنفسهم خلاف ما كانوا يَعْتَدُّون، حتى أن الرجل يأكل ما يكفي ستة أُناس ولم يشبع، وكثرة الموتى في المواشي سدّت عليهم المذاهب بأمر سماوي... »[19].

---

[17] - A.G.V, 3 h9, Rapp. du cdt Schlumberger n° 93 du mois de Novembre 1895, p. 8

- A.G.V, 3 h9, Rapp. du cdt Schlumberger n° 49, en date du 15 décembre, 1895, p. 2 et suiv.

- A.G.V, 3 h9, Rapp. du cdt Schlumberger n° 59, en date du 27 février, 1896, p.2 et suiv

أنظر كذلك :

- خ. س، مح، م. ع. ع رقم 404/6، رسالة الذمي إيشوعة قرقوز إلى الوزير الصدر أحمد بن موسى تضمنت تعازيه في وفاة محتسب مراكش الشهير مولاي عبد الله البوكيلي الذي مات موبوءاً، أثناء سفره في ركب السلطان، والرسالة بتاريخ 21 رجب 1313، الموافق 7 يناير 1896.

- A.G.V, 3 h9, Rapp. du cdt Schlumberger n° 58, en date du 17 f évrier, 1896.

أشار صاحب التقرير إلى وفاة شخصيتين بارزتين في الجهاز المخزني وهما العربي ولد أب محمد الشركي، باشا كَيش اشراكة وأولاد جامع، وعلي بن الجيلالي الراشدي، باشا العرائش وفاس البالي سابقاً، إلاّ أن الرجلين، يضيف نفس المصدر، كانا طاعنين في السن.

[18] - A.G.V, 3 h9, Rapp. du cdt Schlumberger n° 50, en date du 30 décembre, 1895, p. 4.

[19] خ. س، مح. م. ع. ع رقم 404/16، الوثيقة بتاريخ 29 ربيع الثاني 1312/ 30 أكتوبر 1894.

ومعلومٌ كذلك أن أمَلّيَّاء اليهود وتجارهم الكبار، كانوا يستغلون أوقات الشدة وضيق سبل العيش في وجه الأغلبية الساحقة من ساكنة البلاد، في المدن كما في البوادي، فيبادرون إلى تقديم قروض بفوائد مرتفعة جدا إلى من يطلبها منهم من المسلمين واليهود على السواء. ولمَّا كان، في معظم الحالات، يتعذر عليهم تَسْدِيدُ ما اقترضوه من أموال إلى أربابها، فإنهم كانوا يلتمسون من المخزن التدخل لجبر المُرابين اليهود على إرجاء وقت تسديد ما تخلد في ذممهم من ديون.

وهذا ما نستشفه ممَّا التمسه القائد محمد بن كروم الحياني، باسم إخوانه، من السلطان، في رسالة موجهة إلى الوزير الصدر أحمد بن موسى، « إمَا مَرَّ عليهم من المسغبة والغلاء بالسنة الماضية، ولا سيما إيالتنا لمجاورتهم للبربر (يقصد قبيلة بني وراين)... »[20].

وبديهي أن اللجوء إلى التداوي والعلاج، عن طريق وصفات الطب الحديث، في مثل هذه الظروف العصيبة، سواء تعلق الأمر بالأمراض المعدية، أو بالعوارض المرضية الأخرى، كان يقتصر على فئة محدودة العدد من مغاربة الفترة، لأسباب ثقافية ومادية واضحة. ويبدو لنا، مما تجمع لدينا من وثائق، أن بعض كبار تجار اليهود كانوا يتولون جلب الأدوية والعقاقير من البلاد الأروبية ووضعها رهن إشارة من كان في حاجة إليها من وجهاء القوم. وهذا ما تفصح عنه بكل وضوح رسالة الأمين الطاهر بن عبد الكريم التازي إلى أحمد بن موسى المتكرر الذكر، بصفته حاجباً للسلطان وقتئذ، حيث نقرأ ما يلي :

« ...فيصل سيادتك مطرب مطبوع عليه بداخله دوآء، قد حُزته من الذمي التاجر داويد جودي ذكَرَ وَأَنَّ ذالك الألم كان به سنتين، وكتب لأخيه لبر النصرى، ورسل له هذا الدوآء من عند الطبيب. وحيث استعمله، شوفي بسَبَبه، فحين ذكر لنا ذالك، فرحنا لذالك الدوآء، حيث تَيَسَّر، وها هو يصلك، نطلب الله يعجل لك بالشفآء بمنه وكرمه آمين.

وكيفية استعماله لما ترد استعماله، حرك المطرب، ويكب منه شيء في كَفّ اليد ويُدلك به محل الوجع، يبقى يدلك حتى تحس به وأن اللحم الذي

(20) خ. س، مح. م. ع، ع رقم 404/6، الوثيقة بتاريخ 6 جمدى الأولى 1312/ 6 نونبر 1894.

بداخله سخن، واجعل عليه طرف من البايته، ويُعْقَد عليه بخرقة أخرى.

وهذا ما وجب به إعلامكم، وعلى محبتكم والسلام... »[21].

تلكم كانت مُقاربتنا وإطلالتنا على ما كان يصيب المغرب وأهله من كوارث وجوائح طبيعية، بين الفينة والأخرى وعلى امتداد القرن التاسع عشر. وقد ألمحنا إلى مواقف وردود فعل المخزن وثلة من أعوانه الكبار، كما أدلينا بنماذج من الإجراءات المتخذة لإسعاف السكان والتخفيف من معاناتهم وآلامهم. ولاحظنا أنها لا تخرج عن دائرة التدابير والحلول التقليدية، الموروثة عن الأجيال السالفة، الأمر الذي كان بالتأكيد ذا جدوى محدودة، إذا لم يكن منعدم الفائدة. وما النزيف الديموغرافي، وهلاك الأنعام والدواب، وإتلاف الأقوات والمحاصيل الزراعية، كلما ابتليت البلاد بجائحة من الجَوائح التي أومأنا إليها في عرضنا هذا، إلاّ أقوى دليل على عجز المغاربة عن مواجهة هذه الطوارئ، واتخاذ ما كان يلزم من تدابير للتغلب عليها، وتلك مسألة لم تكن قط في طوقهم ولا يستطيعون إليها سبيلاً لأسباب اجتماعية، ومادية وثقافية.

[21] خ. س، مح. م. ح رقم 108، وثيقة بتاريخ 15 رجب 1303 هـ/ 19 أبريل 1886 م.

قائمة الرموز المستعملة في البحث

خ. س	= الخزانة الحسنية.
خ. ع	= الخزانة العامة.
م. و. م. ر	= مُديرية الوثائق الملكية بالرباط.
خ. ص. س	= الخزانة الصبيحية بسلا.
مح. س. م. ع	= محفظة السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام.
مح. س. م	= محفظة سيدي محمد بن عبد الرحمن.
مح. م. ح	= محفظة مولاي الحسن.
مح. م. ع. ع	= محفظة مولاي عبد العزيز.
و. خ. ز	= وثائق الخزانة الزيدانية.
ك	= كناش.
مخ	= مخطوط.
مج	= مُجلد.
م. س	= مرجع سابق.

A. E. P	= Affaires Etrangères - Paris.
Rapp	= Rapport.
Cdt	= Commandant.
Cap	= Capitaine.